

علي أفيلال : الهجرة ، المرأة ، والبحث عن الذات

الدكتور الطيب ولد العروسي

المركز الثقافي للعالم العربي - فرنسا

تتميز أعمال الروائي والناقد المغربي علي أفيلال بغزارتها، إذ نشر منذ نهاية سنة 1993 أكثر من عشرين عملاً إبداعياً، ثمانية عشر رواية وأربع مجموعات قصصية، وكتاب على شكل لقاء أجراه معه الناقد المعروف نور الدين صدوق تحت عنوان " الرواية والحياة" الصادر في الدار البيضاء، عن مطبعة دار النجاح ، سنة 2006، لنلقي نظرة سريعة إلى عناوينها التي يمكن أن تقودنا إلى مفاتيح الموضوعات التي تشغل بال القاص عامة .

الأعمال الروائية وهي ، "أوراق الصفصاف" ، "شجرة التين" ، "نساء في الطريق" ، "وكر العنكبوت" ، "بوح العواصف" ، "أينطفئ الحريق" ، "والآن يا هند" ، "ميلودة" ، "الخوف" ، "هيلانة" ، "رباعية الدمع" ، "اعترافات امرأة" ، "وشم على جدار القلب" .. " ذناب الليل" . "رقصات على حافة الموت" . "رباعيات الدمع أو نساء باقيات" "الوجع" ، صدرت كل هذه الأعمال في الدار البيضاء عن منشورات دار النجاح الجديدة. أما المجموعات القصصية فهي: "أفعى في الصدر" ، "عاشق السراب" ، "وتراب الأرض" . "أيام من سراب" .

والجدير بالذكر أن الكاتب دخل عالم الكتابة عاشقاً للكلمة؛ عصامياً؛ مسخراً صالونه للحلاقة مجلساً أدبياً منذ مطلع السبعينات إلى أن هاجر إلى فرنسا ومن هناك استمرت تجربته الإبداعية⁰³⁰ وأن صالون حلاقته بالدار البيضاء

يحمل اسم "صالون الأدباء" وأنه عاش في الجزائر عدة سنوات بعد استقلالها، الجزائر التي فتحت له جرائدها أبوابها، فكتب في جريدة الشعب وتعرف على مجموعة من النقاد والكتاب مثل عبد الله الركيبي، والتلي بن الشيخ، وعمر البرناوي رحمهما الله. ولعلها كانت القفزة التي أعطت له الثقة بنفسه، فراح يواصل الكتابة التي بدأها منذ نهاية خمسينيات القرن الماضي.

فمن خلال قراءتنا لهذه العناوين نلاحظ انتقال الكاتب من الانشغال الظاهري بالطبيعة ، إلى الخوض في تيمات تمس الجوانب النفسية. بعضها يحمل علامات استفهام كثيرة، كرواية أينطفئ الحريق، فيها نلمس عمق الاتصال الحميمي بالشرق الذي تأثر به كاتبنا في بداية توجهه إلى حقل الرواية، متأثرا في بداية الأمر بأعلام الرواية العربية والعالمية، مما جعل أعماله الأولى تأتي مزدحمة بحقول دلالية كونت قاموس محتويات أعماله الروائية، حيث نلاحظ أيضا التركيز بطريقة أو بأخرى عن - أل "هناك" المنبع، مكان الولادة والنشأة ، بالشرق الذي يفرض نفسه إراديا أو لا إراديا يلتقي هذا الهناك بال هنا أي بالغرب كي يحيكا معا قصصا تزدهم بالحقول الدلالية التي تكون معطيات أساسية لمختلف أعمال الكاتب علي أفيلال.

والكاتب يختار مواضيعه شأن الفنان في انتقائه لألوانه يبعثرها في كل أعماله تقريبا كموضوعة الهجرة مثلا التي تحتل معظم أعماله. أحيانا في غير مواضعها قصد إبراز هاجسه الذاتي تجاه الموضوع. هي أذن تقف في مركز اهتماماته. كما نلاحظ أن المرأة تحتل حيزا مهما في التركيب الإبداعية لدى كاتبنا ؛ وهي ضمن المحاور الأساسية التي تشغله كما نلاحظ في رواية ميلودة، و

الآن يا هند وبوح العواصف إضافة إلى وجودها كمحور مركزي تستعمل أل أنا التي تحكي عن نفسها بلغة الآخرين. إذ يقول علي أفيلال في كتابه "الرواية والحياة" ص. 70 " المرأة أعرف بالمرأة، لذا أعطيت للمرأة كل خيوط اللعبة مما جعلها تداعب كل الأوتار بحركة غريبة متقنة، ولولا معرفتي القليلة بقدرتها على هذا لما جعلتها تقوم بالأدوار الرئيسية في جميع ما كتبتة".

من خلال هذه الأعمال نستقرئ الذاكرة الفردية التي تتكلم عن تجارب الكاتب الذاتية؛ ربما مع الكتابة تساؤلاته الدائمة عن الغربة والوطن وما بعد الوطن وما بعد الغربة، كما نستقرئ الذاكرة الجماعية التي نقف من خلالها على ماضي البلد بأمجاده وأحلامه وتقاليده وعاداته، عن الاستعمار الفرنسي في المغرب ، وعن حالة المهاجر في أوروبا عامة وفي فرنسا خاصة. ولا بد من التأكيد هنا على ميزة واضحة يحتل فيها الجنس مكانا بارزا حوله أو من خلاله تبدأ المشاكل أو تأتي الحلول، تتضح أزمتا البشر، أو تنحسر.. فقيمنا الجنس والغربة يمثلان قاسما مشتركا لكامل أعماله الإبداعية. ولا بد من التنويه إلى أن كاتبنا لم يعرف مقاعد الدراسة وتعلم في مدرسة الحياة – كما يقول- فمن الطبيعي أن تشغله موضوعات لصيقة بحياته القريبة، لذا فعندما نقرأ نصوصه نجد أنفسنا أمام كاتب لا ينطلق من ترسبات أيديولوجية بل من هموم مصدرها محرقة الواقع الذي لا يتكلم عنه كمنظر، أو كباحث مختص، بل كإنسان اكتوى بحقيقة معطياته القاسية وعاش أبطاله في المعامل والشوارع والمجمعات السكنية والأحياء القصديرية كما عاش أبطاله بخيرهم وشرهم. لذا تعتبر أعماله صرخات مجرب، فهو يعيش في فرنسا منذ أكثر من ثلاثة عقود، كما عاش قبلها

في الجزائر بعد استقلالها عقدا من الزمن..وعبر أعماله نلمس شذرات من السيرة الذاتية لهذه التجربة الإنسانية، فهو يذكر في روايته الخوف شخصية مهاجر تقاعد وعاد إلى بلده كي يعيش بين ذويه، لكنه يصطدم بالواقع، ولا يستطيع أن يتحمل علاقة أهله به فهم من تركوه وهمشوه في حين أنه قضى أجمل سنوات عمره في البحث والعمل على توفير لقمة العيش لهم..إضافة إلى اللامبالاة التي قوبل بها جهاده الفردي جعل الشرخ يتسع فيما بينه وبينهم . ودفعه إلى الهجرة ثانية؟ فحضوره لا يطاق، لأنهم تعودوا على غيابه، وتعودوا على رؤيته مرة في كل سنة أو في كل سنتين، فهذا الحضور راح يزعجهم، ومن هنا أصبح المهاجر كلما تقدم نحو التقاعد كلما طرح هذه الأسئلة، كلما كبر الخوف عنده، فالكثير منهم شد الرحال وعاد إلى غربته، ليس لأنه استساغها على العكس تماما فقد نال من عنصريتها، وحقدتها على الأجنبي، لكنه اختار الأحلى بين أمرين. ففي سنه المتقدمة لن يعثر في بلد غريب على خلاف الوحدة والمرض يقفان له بالمرصاد. وهو وسط ذلك يواصل مساعدة أهله .

الملاحظ أيضا، أن الأستاذ علي أفيلال يستعمل في كتاباته كثيرا ضمير المخاطب الذي يرمز إلى الكثير من الاعتراف والمواجهة، لان ما يكتبه لا يعتبره شيء من الخيال، بقدر ما هو مأخوذ من الواقع الذي عايشه أو عاشه، خاصة وأنه من الجيل الأول الذي هاجر بعد استقلال بلدان المغرب العربي ، ومعظم أعماله الإبداعية نجد فيها حضورا مهما لهذا الجيل، وأن مهنته كحلاق جعلت منه يسمع للكثير من الأوضاع والحالات الاجتماعية والنفسية عبر زبائنه وزبونات، مما سمح له بتعميق نظرته وإحاطته بعالم الهجرة، وتوغله في

ظروفهم النفسية وحياتهم اليومية، إذ تكلم عن المسكوت عنه، دون لف ودوران، ورصد علاقة الناس ببعضها، كما رصد تحولات المرأة المهاجرة التي قدمت مع زوجها، أو جاءت للشغل، فإذ بها تتعرف على "مافيات" تجار الليل والجنس، وهكذا سلكت طرقاً أخرى وأساءت لأسرها وعائلاتهما، كما أدمنت على الفواحش وعلى المخدرات والخمر، فحادت عن الطريق وراحت تخطط لبعضها الشقاء والبؤس دون شفقة أو رحمة، فكان أن دمرت نفسها ومن حواليتها.

تتجسد الغربة في عمله القصصي أفعى في الصدر حيث يعود إلى نفس الموضوع، بكل أبعادها يعايش الكاتب أحداثاً أخرى كالقضية الفلسطينية، الجرح العربي الكبير، والعراق الذي يعاني على مسمع ومرأى من كاميرات العالم. علاوة على ذلك ما يدور في العالم العربي من هموم وانعكاسات كل ذلك إضافة للأوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية والنفسية، التي يعيشها الإنسان العربي في ظل صعود الحركات المتطرفة من جهة ولعبة الجنرالات الكرتونية من جهة أخرى وضياح الإنسان العربي وحيرته، حيث يصبح الحلم في ظل ذلك مستحيلاً. فكما نلاحظ فإن عوالم علي أفيال مستقاة من الواقع المعاش بظروفه الصعبة في المعامل ومواجهة العنصرية في الحياة اليومية، أو انعكاس ما يجري في العالم العربي الإسلامي عنها من أحداث، فالمهاجر هو هذا الغريب الذي لم يعد يحس به الآخرون، وخاصة ذوي القربة، وهذا ما نجده في "أفعى في الصدر" أو في رواية "الخوف"، حيث المهاجر لم يجد أي تفهم من عائلته وأسرته فشد الرحال عائداً إلى غربته.

تتشكل فصول وأبواب روايات علي أفيلال من عناوين، مما يترك المتلقي أو القارئ يكشف عناصر العمل الإبداعي على شكل وحدات حكاية مستقلة، وفي الوقت نفسه متواصلة ومتكاملة، والتي يعتبرها الكاتب بأنها نقلة يعتبرها استراحة " يمنحها السرد الروائي للمتلقي الذي يلهث وراء قراءة النص، وما تلبسه اللغة من أحداث تجسد الوقائع المرة التي أغترف منها ما أعود إلى تشكيله في قالب روائي صرف" (الرواية والحياة، ص. 54، 55).

قرأ علي أفيلال لأهم الروائيين والكتاب العرب والغرب، وكانت الرومانسية آنذاك سيدة الموقف، مما أثر في طريقة وأسلوب كتابته، لذا فنجدته يسير على نفس المنوال ولكنه يعالج قضايا حارقة كما قلنا أعلاه.

لنقف عند المجموعة القصصية للأستاذ علي أفيلال وهي بعنوان : "ترب الأرض" ، حيث نقرأ ملخصاً فنياً للأحداث التي يعايشها يضاف إليها الهاجس القديم الجديد الذي يشغله ذاته وسط ما يجري .

صدرت هذه المجموعة في الدار البيضاء، عن مطبعة النجاح الجديدة، وتقع في 147 صفحة وتضم ثمانية عشر قصة يتراوح حجمها ما بين الخمس والعشر صفحات، يربطها مرارة الواقع وويلات ولا مبالاة ذوي القربى وفيها نقد للمجتمع الذي يضربه انحلالاً أخلاقياً يحير الكاتب، ففي قصة مفتاح السر نرى « نخبة » من الأثرياء يجتمعون مرة كل شهر في بيت أحدهم . بعد الانتهاء من الأكل والشرب، يرمون مفاتيح سياراتهم في الهواء وتنطلق زوجاتهم لاختطافها، بهذه الطريقة، يتبادل « الأصدقاء » زوجاتهم، وتعرف إحداهن

حرارة ولوعة الحب والجنس، وتتمنى أن يتكرر الموضوع كي تحظى بنفس الرجل مرة أخرى.»زوجي ضعيف. لا يأخذني إلا نادرا، وحتى إن أخذني لا ينفع غلة شوقي، ولا يطفى ما يتأجج بالأعماق..» هذه اللعبة هي عادة خلقها هؤلاء (الميسورين) الذين تألقوا في صداقتهم التي انقلبت إلى شيء لا يصدق، فبعد تعرفها على صديق زوجها تقول:" كلما حان وقت اللعبة وجدتي أكثر استعدادا وأكثر تأججا إلى كل ما يجعلني أبدو فاتنة في عيني السيد «ك» لا في عيني زوجي»..وفي قصة عقد الزواج ينقلنا الكاتب إلى فضاء آخر، فحين توشك بطاقة إقامة السارد على الانتهاء وتطلب منه محافظة الشرطة أوراق الزواج التي لم تشأ أم الأولاد إرسالها إليه حتى يبقى معلقا، . تصعب عليه سبيل عيشه دون مراعاة لأولادها ولا لغابر حياتها معهم..مجرد نرفزة، ولكنه يحصل على صورة من عقد زواجه . « حين تأكد له هذا..انقضت سحب الخوف القاتمة، وراح يفكر بحزم وقوة، أن عليه أن يحرر أيامه من أيامك..أن ينزل بينه وبينك ستارا كثيفا لا ضوء يبدو من ورائه».

أما في قصة تراب الأرض فنجد أنفسنا أمام المشهد الفلسطيني بكل تداعياته ، بانتفاضته المجيدة، كما يوصف لنا السارد تحدي العدو الصهيوني لكل قرارات الأمم المتحدة، فهو يعمل ما يريد وقت ما يريد، غير أن حجارة الأطفال الصغار زلزلت كيانه وصمود المقاومين من مختلف الشرائح الاجتماعية، فالمدافع عن حقه وترابه لا يخاف من الموت، لأنه يدافع عن قيمه وثوابته وتاريخه وجغرافيته، بمقابل ذلك يمثل المستوطن الجسد الأجنبي في هذا التراب، وهو لذلك برغم قوته وجبروته، نجده يخاف من المواجهة، وتقبل الحقائق، يقول السارد."لا يا جدي..لا..لا تبرح مكان انزوانك، مخافة أن تصاب بنار من لا يهمهم إلا القتل..لا الشيوخ والعجائز فحسب، بل حتى الرضيع ومن ترضعه."

وهكذا يرسم لنا الكاتب لوحة كئيبة لجرحنا الفلسطيني، إذ يعاني الناس من قمع لا مثيل له، من تجريدهم من كياناتهم وتفريق الأسر والقضاء على البيوت التي تأوي الناس.. هذا التراب الغالي يدارونه بحياتهم فتفجير المنازل يبقي السكان بلا حول ولا قوة لا يملكون سوى أنقاضه. والعالم العربي يتابع ما يحدث ولا يملك غير أبواقه وصمته كلهم مساهمون في قتل القضية الفلسطينية، لأنهم إما مساهمون وأما متفرجون. خيار الشباب الوحيد الجهاد والقتال بغية تحطيم معنويات المستوطن.

"تهدم البيوت ويعود أصحابها ليناموا فوق أنقاضها، وهذا ما لم يكن في حسابان مخططي هذه الحرب ظن هؤلاء أن ما حدث بالأمس قد يحدث اليوم، إذا ما شعلوها حربا تأكل الإنسان، قبل أن تاكل الأرض، وأشعلوها فعلا، ولكن لا أحد هرب.." هذه القصة هي بطاقة نقرأ من خلالها الصمود الفلسطيني الذي يستحيل إلى أحد ثوابت الحياة . هذا الأمر ينعكس من خلال المقطع التالي: "هذه رسالة لأبناء الغد يا جدي ..رسالة مؤداها أن تارك الأرض كتارك الإيمان بإنسانيته وخلقه"

لا شك أن أرض العالم العربي خصبة بالأحداث المؤلمة. والسؤال المطروح يريد الإجابة على هذه الخصوبة الأبدية في استيعاب الألم، هل هي مرحلة آنية أم أنها إحدى الثوابت التي تضاف إلى ثوابت وجودنا السلبي في عالم عربي لا يتعب من أمثال هذه الأخصابات؟ إذن فعالم علي أفيلال الإبداعي متلون بتلون الأحداث وهو يعانق الحلم ويرى في حضور الحفيد، صورة عن الغد الذي وحده يملك الحق في وضع حد لتسبيه. أن من يملك مفتاحه الجيل الجديد الذي يرى تصورات جديدة للآتي. يقول الناقد المغربي نور الدين صدوق في مجموعة تراب الأرض " "الهم القومي متمثلا في القضية الفلسطينية وما انتهت إليه، دون أن يتحقق إيجاد الحق العادل الذي يصون للفلسطيني كرامته وعزته وأنفته..وعلى السواء بالنسبة للمواطن العربي..."

تعتبر هذه المجموعة إضافة ثرية يقدمها الكاتب للساحة الإبداعية المغربية والعربية، وهي تحمل كما عودتنا، هموم المواطن العربي مهاجرا أو باقيا في البلد، إضافة إلى ما يجري في العالم العربي.. لكن موضوع الهجرة بكل إشكالياتها وتضاعفاتها وهمومها وأحلامها يبقى محورا أساسيا تدور حوله بقية الأحداث.. وتخرج شخصيات علي أفيلال من نفس الوسط الاجتماعي، فالغني مع الغني، والفقير مع الفقير، تربطهما صراعات وآمال مختلفة. هي جميعها تنطلق من بوادي المغرب أو من المعامل والمقاهي و المواصلات الفرنسية. يعانون أحلاما مشتركة العودة إلى الوطن، الزواج، الغربة، النضال.. في أعمال الكاتب الذي يشغل سطورنا قراءة أنثروبولوجية بل أنتو لجية لواقع الهجرة المعقد، والذي بدأ جيلها الأول يشيخ، وبدأت قيمه تذهب معه، أما الأجيال الثانية والثالثة فهي تتحرك في محيط غريب يزخر بالمخاطر والمفاجآت ، هم ليسوا من هنا ولا من هناك، إذ يصعب عليهم الاندماج لكونهم من أصول إسلامية ويحملون أسماء عربية، إضافة إلى انعكاسات وإرهاصات الواقع العربي التي تنعكس عليهم سلبا أو إيجابا.. فلا بلدانهم الأصلية تحسبهم بأنهم جزء منها ولا فرنسا واضحة في خطابها تجاههم.. أما الجيل الأول فقد رسمه الأستاذ أفيلال بأحلامه وآلامه، ويعد من ممثليه الحقيقيين لأنه يعانق نفس الوجد ونفس الألم، وربما أحلاما راحت تتبدد يوما بعد آخر....

هناك أسئلة تطرح حول هذا الكاتب البالغ من العمر 76 سنة والذي يواصل مشوار الإبداع دون كلل ، وهو ينشر على حسابه الخاص، ويجب الإشارة بأن روايته "ميلودة" قد ترجمت إلى اللغة الفرنسية واللغة الانجليزية،

أما رواية 'شجرة التين' فقد ترجمت إلى اللغة الفرنسية، وحصل سنة 2009 على وسام الاستحقاق الملكي على مختلف أعماله، كما تجدر الإشارة أيضا إلى أن أغلب أعماله الروائية قدمت من طرف كتاب ونقاد مغاربة مهمين، لكن لم يأخذ حقه من الدراسة والتقييم من قبل المهتمين بالأدب المغربي، فهل يعتبر ما كتبه علي أفيلال إضافة مهمة على المستوى الفني والقصصي أم كرر نفسه؟ وهل أضاف شيئا على المستوى الإبداعي، هذه الأسئلة وغيرها تطرح على عاتق هؤلاء المهتمين إضافة إلى قليل من الاهتمام به من طرف المؤسسات الثقافية المغربية وحتى العربية. تكون مثل وقفة تشجيعية موضوعية ومنطقية تعطي للأستاذ علي أفيلال دفعا لمواصلة، أو مراجعة، ما يكتب. وهذا ما يطالب به الأستاذ علي أفيلال نفسه في أغلب اللقاءات التي أعطاها للصحافة، وأن ناقد وكتابتا مثل الدكتور سعيد يقطين يقول فيه "يبدو لي أن الروائي علي أفيلال، بذل مجهودا كبيرا في تشكيل عالم الرواية، فوفر له كل مقومات النجاح سواء على مستوى السرد وتقطيعه، ليجعله متوازنا، وهو ينتقل من عالم إلى آخر، أو هو يلعب بالبناء الزماني والمكاني، فيوظف مستوياته بطريقة تقوم على إيقاع وتوزيع متنوع ومتعدد : فتتداخل الفضاءات والشخصيات والزمان بشكل موزون ومضبوط.. " (من مقدمته لرواية "هيلانة")

المراجع :

- 1- الرواية والحياة لقاء أدبي أنجزه الناقد الأدبي المغربي صادق نور الدين.
- 2- علي أفيلال،، تراب الأرض، مجموعة قصصية.
- 3- علي أفيلال، الخوف، رواية.
- 4- علي أفيلال، أفعى في الصدر، مجموعة قصصية.
- 5- علي أفيلال، هيلانة، رواية